كلمة العدد

عاوز أعيش حياتى

بقلم
د. محمود أبو العزائم
رئيس التحرير

خلق الله تعالى الحياة الدنيا ليختبر فيها الإنسان ويمتحنه، ولكى يرى أيهم سيتحلى بالأخلاق الحميدة ويبدى له إخلاصاً حقيقياً وعبودية كاملة. بمعنى آخر، فإن هذه الدنيا هى دار امتحان للتمييز بين الإنسان الذى يجتنب معصية الله وبين من يجحد به. ففى دار الامتحان هذه التى تحوى القبح والجمال، الكمال والنقصان معا يمتحن العبد ضمن نظام لا يعتريه أى نقص. فالإنسان يمكن أن يظهر إيمانه بأن يسلك طرقا متنوعة فى هذه السبيل، وفى النهاية فالذين يؤمنون بالله إيمانا لا يعتريه الشك أو التردد سيتميزون عن الملحدين والمنكرين وسيصلون إلى بر النجاة. وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله:

أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (سورة العنكبوت ٢-٣)

وهذه هى الدنيا التى يستغرق فيها بعض الناس ويُضيِّعون الآخرة كلها؛ لينالوا منها بعض المتاع، هذه هى، لا أمن فيها ولا اطمئنان، ولا ثبات فيها ولا استقرار، ولا يملك الناس من أمرها شيئًا إلا بمقدار، هذه هي: (وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [يونس: ٢٥].

ووصَفَ القرآن الكريمُ الدنيا كزهرةٍ تزهرُ بنضارَتها، تسحَر الألباب، تستهوى القلوبَ، ثم لا تلبث إلا برهةً حتى تذبُل، فتتلاشى تلك النضَارة، وتحطّمها الريح كأنَّها لَم تكنْ، هكذا مثل الدنيا، زهرة فتَّانة، غرَّارة تغدرُ وتغوى، فإذا أقبلتْ عليها النفوس، وتعلَّقتْ بها الألباب، زوَتْ أيَّامها، واستحالتْ نضرتُها إلى هشيم، فغَدَتْ نعمتُها غرورًا.

إن تحذير القرآن من الحياة الدنيا، وترغيبه بالدار الآخرة لا ينبغى أن يُفهم منه أن المسلم عليه أن يقف من الحياة الدنيا موقفاً سلبياً جملة وتفصيلاً، فليس هذا الفهم مراداً للقرآن، بل إن الموقف المتوازن من الدنيا أن يقف المسلم منها موقفاً متزناً، بحيث يجعل هذه الدنيا فى يديه لا فى قلبه، فيأخذ منها ما يخدم دينه وآخرته، ويُعْرِض عنها فى كل ما يعود بالضرر عليه دنيا وآخرة.

وهنا يأتى البعض ليقول «لقد مرت الكثير من سنين حياتى لغايات تافهة وفارغة، فلم أفهم بوضوح لأى غاية عشت هذه السنين الماضية. بداية كنت أعيش من أجل الحصول على درجة عالية من التعليم ثم بعد ذلك كافحت فى الحياة لأحصل على عمل ذى دخل مناسب ثم بعد ذلك للحصول على حياة زوجية مستقرة ومن ثم من أجل زوجتى ومن ثم لأجل أولادى.. أما الآن فأنا أرغب أن أعيش حياتى.. متى سوف أعيش وأستمتع بحياتى؟.. ماذا سيحدث بعد ذلك؟.. لقد سئمت من كل شيء ولا أدرى ما قيمة هذه الحياة التى نتعذب فيها.. فأنا أشعر بأنى مربوط فى طاحونة وما علىّ إلا مواصلة العمل.»

وهذا الحوار كثيرا ما يتردد فى العيادات النفسية، حيث يأتى المريض وهو يشتكى من أنه سئم هذه الحياة التى لا يحصل فيها إلا على الكثير من الآلام والأحزان والابتلاءات، وأن عليه العمل باستمرار والتضحية من أجل الأهل والأسرة، ولا يكاد يستمتع بحياته التى يشعر بأنها تضيع سدى وأحيانا ما يتبرم من هذه الأوضاع ويقول: (هل خلقنا الله فى هذه الدنيا من أجل العذاب والشقاء).

إن أسباب هذا الفراغ الذى يقع فيه أمثال هؤلاء هى عدم إدراكهم غاية خلق جميع الموجودات والأحياء، وهذه الغاية هى وراء خلق جميع هذه الكائنات. إن الإنسان العاقل الذى إذا ألقى نظرة من حوله سيدرك أن هذا النظام المدهش والفريد من نوعه الذى يحيط به قد أوجده وصوّره خالق ينفرد بعلم لانهائى وبقدرة غير محدودة. إن عدم ظهور هذه الموجودات والكائنات بشكل اعتباطى أو عشوائى أو نتيجة مصادفات، بل ضمن مخطط زمنى منظم غاية النظام يجسد الغاية التى خلقت من أجلها. وإن هذه الغاية قد دلنا عليها رب العالمين من خلال كتابه العزيز وهو القرآن الكريم المرسل هدى للناس أجمعين.

إن الشخص المؤمن بالله عز وجل الذى يضع نصب عينيه هذه الحقائق سيجيب على هذه الأسئلة السابقة بصورة صحيحة وسيقول:

«لقد خلقنى الله رب العالمين وأرسلنى إلى هذه الدنيا، وكلفنى أن أقضى هذه المدة فى العبودية له وبأحسن وجه، وقد اختبرنى لهذا الغرض وامتحننى. وكنت أعلم مسبقا بأن هذه الحياة قصيرة وزائلة وستمر فى لمح البصر، لذا بذلت جهدى لكى أكون عبداً مطيعاً لا ينخدع بمباهج هذه الحياة الفانية وبملذاتها.

ثم تسألنى: ماذا بعد ذلك؟... لقد حاولت طوال حياتى أن أكون عبدا صالحا، أقوم بجميع ما أمرنى الله به على أكمل وجه، لأن طموحى وأملى كان هو الفوز بالسعادة الأبدية بالدخول إلى الجنة، والفوز بها. وأنا أنتظر بفارغ الصبر اليوم الذى أمثل فيه أمام رب العالمين».